(١)

الوجودية

بحث علمي بقلم: علياء رضاه رافع محمد رافع

ليست الفلسفة الوجودية فردية، يمكن أن ننسبها إلى شخص بعينه، إنما هي نظرة متطورة عن وجود الإنسان وجوهره، ولعل موضوعها وهو الإنسان، يبين لنا مدى تعقدها وتعددها، هذا التعدد الذي جاء نتيجة تطور معرفة الكائن البشري عن نفسه، ومرونة العقل الإنساني في أن يتخذ زوايا متعددة في بحث حقيقة وجوده.

إذا أرسلنا البصر عبر آفاق التاريخ، لوجدنا بذورا منها عند السفسطائيين وهم يجادلون في القول بأن معيار الحق والخطأ هو الإنسان، ومن المؤرخين من اعتبر الأبيقوريين من الفلاسفة الوجوديين، كذلك نجد سقراط يبحث في وجود الإنسان، ولكن بطريقة مثالية، وإنما أهم ما يعنينا في الأمر نشوء هذه الفلسفات الحديثة التي اقترنت كل منها باسم (فلسفة وجودية)، وهي التي نقلت البحث من الماهية إلى الوجود الواقعي المشخص للإنسان، وقد تعرضت الوجودية لهجوم عنيف من أعدائها، في نفس الوقت الذي كانت تنتشر فيه، قال أعداؤها إنها فلسفة غير إنسانية لأنها تجعل من التشاؤم إحساسا دائما يعيشه الإنسان في كل لحظة. وقال آخرون إنها فلسفة لا أخلاقية تهدم كل القيم الإنسانية، وتشيع في المجتمع الفوضوية والانحلال. وطائفة ثالثة تعرضت لها من الجانب الديني، خاصة أن وجودية سارتر تجاهر بإلحادها بالله الذي لا قيمة له، ولا ضرر من فقده.

ولكي نتبين مدى صحة هؤلاء المهاجمين في هجومهم، يجب أن نعرض تطور هذه الفلسفة، في محاولة انفعال بآرائها، وفي ظل مفهوم عن الحياة، ارتبطنا وامتزجنا به. فربما كان هذا مفتاحا صغيرا لفتح الباب المغلق، أو بصيصا من النور ألقي في ظلام الدجى.

والفلاسفة الوجوديين عندما يتكلمون عن فلسفتهم فهم يتكلمون عن أنفسهم في تجربة ذاتية حية، فهم يقومون بالكشف عن أناهم، وقد استعملوا ألفاظا مجسمة تبين حقيقة شعورهم، كاستعمال سارتر للفظ الغثيان.

والآن لنبدأ بهذا الذي اقترن اسمه بأبي الوجودية، في الوقت الذي كان يهاجم فيه المذهبية، ولم تكن عنده أدنى فكرة عن أن ما قاله هو بداية لفلسفة جديده تكلم فيها كثير من الفلاسفة اللاحقين عليه أو المعارضين له، إنه (كيركجارد).

(كيركجارد): كان لنشأة كيركجارد الدينية أثر كبير في تكوين آرائه الفلسفية، فقد أمضى طفولته مع والد شيخ طاعن في السن، كان يتكلم معه كثيرا عن الله، والخطيئة والقلق والتمزق النفسي، وتأثر كيركجارد كثيرا بتعاليم أبيه، وقام عنده الإيمان بالله عن طريق الإحساس، وليس عن طريق المنطق العقلي، هذا الإحساس بالضياع والتمزق والفناء أمام الكائن الأعظم.

إن طريق الإنسان إلى الله هو التأمل لذاته (أي ذات الإنسان)، ولكن عليه أن يعرف أنها ستظل مجهولة عليه بتعقدها وتعددها، حتى أن وسائل تعبيره عنها لن تكون كاملة، لأنها ستكون بهذا التعدد، وهذا التعقيد.

ومن تأمله لوجوده سيدرك أن هذا الوجود هو وجود للخطيئة، لأننا نكون في تماثل مع الله، ونشعر بفرديتنا بإزائه، وهذا الحضور أمام الله ينشأ عنه صراع بين أنا الكائن المتناهي، وبين الأبدية وهو الوجود اللامتناهي، وبالرغم من معرفتنا أن الفناء وجود للحقيقة، إلا أن النفس تخشى السقوط في الفناء، ولكنها تندفع نحوه بقوة أكبر منها.

وأما المعرفة عنده فهي تجربة حية تعيشها الذات، فهي ليست موضوعا خارجيا يبحث فيه العقل، وإنما هي حياة وعمل يعيشه الوجود، بل إن الوجود ينعكس فينا، وبذا لا نستطيع أن نعرف عنه إلا عن طريق معرفتنا لأنفسنا.

وعلى هذا فإن الموضوع لا يكتسب حقيقة إلا من علاقتي أنا به، فلو اعتقدت في حجر اعتقادا راسخا، وخلعت عليه صفات الآلهة، لأصبحت علاقتي مع هذه الصفات، وليس مع الحجر كحجر.

وإذا كان كيركجارد قد نظر في الوجود أمام الله، نجد أن جبريل مارسيل (١٨٨٩) ينظر إلى الوصول إلى الالتحام بالله، وخير طريق إلى هذا هو الأمل، الذي اعتبره نسيج الروح التي منه صنعت.. هذا الأمل هو الذي يجعلنا دائما نحاول أن نصل إلى أعلى، فنتعالى عن وجودنا لنرتبط به، ولكن الشرط الأساسي للوصول إلى الأعلى هو تجسيمه وتشخيصه في زعيم أو مفكر أو فيلسوف، أي في إنسان، وهذا الارتباط ليس خارجيا، إنما هو ارتباط به في أنفسنا، أي أننا نسير نحوه في تكوين ما نحبه فيه فينا، وهذا الارتباط لا بد أن ينشأ من دعوة الآخر لنا، لأنه هو تجسيم آمالنا.

ولكي أصل إلى ما أبغي، ينبغي أن أعرف أو أبدأ من وجودي لأصل إلى ما أريد أن يكون عليه هذا الوجود، ولكن هل من الممكن أن ندرك هذا الوجود؟، إن جبريل مارسيل يطلق عليه (السر)، هذا السر الذي أدرك أنه موجود فيَّ عندما أتساءل عن الوجود، إذ أنني أعرف أنني موجود لأنني قد وضعت تساؤلا أتساءل فيه عن الوجود، وبذا يصبح الوجود ليس شيئا أمَامي وإنما هو فيَّ، إنه السر الذي ما ألبث أن أنقب بذاتي عنه إلى ما وراءه... إلى اللانهائي.

وعلى هذا فما وراء الطبيعة أو الميتافيزيقا، ما هي إلا عبارة عن سلسلة من أسرار، تفضي بعضها إلى البعض الآخر، وتعود الواحدة إلى الأخرى لأنها جميعها تشترك في سر واحد، هو سر الوجود.

وأول شعور لي بوجودي، هو شعوري بجسمي، هذا الشعور يوجد العالم في نفس اللحظة معي، فوجود العالم لا ينفصل عن الشعور بوجودي.

فأنا جسمي، ولكن هل هذا هو كل ما في الأمر؟، كلا فإن في هذا قضاء عليَّ، لأنني سأصبح جثة. ولما لم تكن الجثة كلّي، فهناك شيء آخر وهذا هو موطن السر، ألا وهو أن أتعالى عن هذا الوجود، فالوجود الحق إذن هو أن يصنع الإنسان نفسه، صاعدا نحو المتعالي، وتجربة الوفاء هي مفتاح الطريق إليه، والوفاء يقتضي الحرية لأنه لا معنى لوعد ألتزم به بإجبار عليه، والله هو الكائن الذي يبادلنا الوفاء المطلق، وبهذا الوفاء المتبادل أي هذه العلاقة أشارك في اتحاد لا يبلغ مداه التعبير، وأكون بهذا مهيأ لتلقي الوحي، ومتأهبا للاتحاد مع الله، وإدراك الله ليس إدراك الغائب (هو)، ولكن إدراك الحاضر الذي أنزع إليه (أنت) الذي أكون في طريقي للاندماج فيه دائما.

هذه هي فلسفة جبريل مارسيل الرائعة، ذات البناء المتماسك العميق، وأما التوأم الحقيقي لجبريل مارسيل فهو كارل ياسبرز (١٨٨٧) ويكاد المرء أن يقول إنه لا بد أن كلاهما قد أخذ من الآخر.

فهو يتكلم أيضا عن التعالي والمفارقة إلى المطلق المتعالي، ولكي نصل إلى الانفصال عن الوجود الموجود يجب أن نفهمه، فالحرية هي أساسه، حتى يمكنني أن أقول (أنا أختار إذن أنا موجود)، هذه الحرية ليست موضوعا أفسره بل هي فعل أقوم به يجعل وجودي حقا، والشرطين الأساسيين للحرية هما المعرفة والشعور بالقانون.

هذه الحرية هي التي توجدني على ما أريد أن أوجد، ولكن هذا التحقيق الذاتي لا يتم إلا بالاتصال بالآخرين، لأنني لا أستطيع أن أصبح عين ذاتي إلا بهم، واتصالي بهم يتخطى دائرة العلاقات المألوفة الاقتصادية والاجتماعية، إلى اتصال أعمق فهو يربط بين الموجودات في جانبها الشخصي الباطني العميق، هذا الاتصال يتم على الحرية في كلا الطرفين المتعاملين بحيث أن تحافظ الذات على نفسها،

لأن وجودها هو شرط اتصالها إذ كيف يتصل اللاموجود بالموجود؟ ومن كلا الحريتين ينشأ صراع وانفصال، ولكن هذا الصراع ليس صراع عداء، وإنما يجب أن يدخل فيه عنصر الصحبة، فهو الطريق الذي يساعدنا على أن نخلق أنفسنا، مع الآخرين في أشياء نرتضيها فيهم لأنفسنا، ونكون في هذا ضد أنفسنا في نفس الوقت.

وللاتصال طابع السر أو المعجزة لأننا نعجز عن تفسيره بواسطة العقل الموضوعي، وذلك لأنه يتم في داخل نطاق التعالي.. ويقول يسبرز (أنا وأنت منفصلان في الوجود التجريبي، لكننا شيئا واحدا في التعالي).

وقد أعطانا الله الحرية لنتحدى الحياة وما بها من مظالم سعيا إليه، ولا نستطيع أن نقول إننا نعبد الله ما لم تكن لدينا حرية في الكفر به.

وينتقل يسبرز إلى شرح شيء آخر، وهي المواقف، فهناك مواقف نستطيع أن نتخذها إزاء الأشياء، وهناك أخرى هي حدود تمنعنا من أن نتخطاها، كالموت والألم والصراع، فالموت مثلا لا بد أن نتقبله باعتباره الغاية القصوى لكل وجود تجريبي، أو باعتبار أن حياتنا الزمنية الموقوتة لا يمكن أن تدوم إلى ما لا نهاية. وإذا كنا نشعر بضرب من القلق إزاء الموت فإنما يرجع ذلك إلى أننا لم نستطع أن نحيا بعد، وأما موت الآخرين الأحباء إلينا، فإن في الاتصال العميق بهم انتصار على هذا الانفصال الوقتي، واتصالنا بالمتعالي يتم بثلاث لغات يتحدث بها إلينا هي التجربة التي نحياها، والناس الذين نعاشرهم والتأمل الذي هو تفسير لكل شيء، وقراءة هذه اللغات تساعدنا على أن نطل منها على أغوار أعماق لا نهاية لها.

وهناك طريق آخر إلى المتعالي هو الفشل، وهذا الفشل الذي يدعونني إلى الإيجابية فهو يقول: اعمل مرة أخرى، وبالعمل والاندماج نصل إلى المتعالي.

هذه جوانب رائعة ومشرقة من الفلسفة الوجودية، يظهر الله فيها جليا واضحا لدي الفلاسفة، فهم يتعرفون عليه في صميم الوجود الإنساني، ويصلون إليه من واقع إحساسهم به، ولكن هناك من وصموا أنفسهم بالإلحاد. وكانوا في تفسيرهم مؤمنين أكثر منهم ملحدين، فهم قد أثبتوا القدرة على الخلق في الإنسان، مما جعل إلها منفصلا عن هذا الوجود شيء لا داعي، ولا قيمة له، فهو لا يغير من الأمر شيئا ما دام منفصلا عن وجودهم، ولم يدروا أنهم إنما يثبتون وجود الله ولا ينفونه، فما دام قد استطاع الإنسان أن يخلق نفسه بحريته في الاختيار، فهو في خلقته يسير نحو ما يريد، وما يريد هو المتعالي عما هو قائم، هذا المتعالي هو الله، وإذا كانت له حرية الاختيار السابقة على وجودنا لماهية

النازع نحوها، فإن هذه الحرية تستلزم القدرة على ممارستنا لها، هذه القدرة موجودة في الوجود لم أخلقها ولكنني أعطيتها، فهي في حقيقتها قدرة القادر على أن أكون قادرا. هذه القدرة هي الله.

قال سارتر بصريح العبارة إنه ملحد، وكذلك قال هيدجر.. ولكي نستطيع الحكم عليهما يلزم أن نعرض فلسفتهما.

ولنبدأ بهيدجر وهو سابق زمنيا جان بول سارتر (١٨٨٩).

يريد هيدجر أن يضع عِلما للوجود الإنساني، أي أنه يبحث فيما يسرى عليه ويسرى على الآخرين.. على الإنسان بوجه عام.

الإنسان هو الكائن الذي لا ينفك يسأل عن سر وجوده وغايته، ولا يلبث أن يشعر بالقلق خوفا من العدم، وفي هذا القلق يشعر بأن الأشياء جميعها تنزلق وتفر من يديه، وكأن الوجود ينسكب في ثغرة غير منظورة.

هذا العدم عند هيدجر له معنى إيجابي، لأنه يقوم بفعل إعدام الوجود، ولذا فإنه لا يشعر بالقلق إلا الموجود، أما الآخر فيعيش في وهم الوجود، ولا يعنيه من الأمر شيئا فيبحث عن الآخرين بدافع من التسلية، وليس حبا لمعرفة جديدة، وتختلط الأمور عليه فلا يدري شيئا، هذه الحالة نستطيع أن نطلق عليها لفظ سقوط، أي هروب الإنسان من ذاته وسقوطه من وجوده.

ولكن الوجود الأصيل هو وجود الفيلسوف (والفيلسوف هنا بمعنى الإنسان، لأننا لا نستطيع إطلاق هذا اللفظ (الإنسان) إلا على من يتساءل عن سر وجوده)، هذا الفيلسوف الذي يرتبط والعالم بعلاقة المحبة، فالفلسفة ليست محبة الحكمة إنما هي حكمة المحبة، هذا الاتصال الذي يقوم بين الإنسان والعالم اتصال وجودي، أي اتصال قوامه الشعور بالاهتمام والامتزاج مما يجعل الإنسان يبدو قلقاً لأنه يحاول دائما النزوع نحو الآخر، ومن هنا تبدو أهمية الموضوع الخارجي في وجود الذات، فالكائن المنطوي على ذاته، القابع في إنيته موجود وهمي لا حقيقة له. وهكذا نرى أن فلسفة هيدجر بعيدة عن الفلسفات الانعزالية الفردية لأنها تؤكد علاقتنا بالطبيعة، وارتباطنا الميتافيزيقي بغيرنا من الأفراد.

وفي النهاية نعرف أن القلق هو طريق الوجود، إذ أنه يجعلنا نشعر بقابليتنا للموت والفناء، هذا القلق قلق عام، لا باعث معين له. بل إننا نجد أنفسنا إزاء تهديد عام منه في كل مكان، دون أن يكون في مكان.

الإنسان هو الكائن الموجود الذي يحمل في وجوده بذور الفناء، كما تحمل الأُم جنينها داخل أحشائها، وليس الموت واقعة تظهر في ختام الحياة، بل هو واقعة ماثلة في صميم الحياة، أي أنها واقعة لا تكاد تنفصل عن فعل وجودي نفسه، وليس الموت بمثابة فكرة النهاية بل هو واقعة الانتهاء نفسها. وهذا هو السبب الذي يجعل هيدجر يرى في الموت أعلى إمكانيات الوجود الإنساني.. لأنه تجربة ذاتية مميزة. وعندما يبلغ الإنسان مرتبة الوجود فلا بد أن يعرف (أنه بمجرد ما يظهر الإنسان إلى عالم الوجود فإنه سرعان ما تدب فيه الشيخوخة وكأنه على وشك الموت)، وعلى هذا فإن الذات الواعية يجب ألا تكون خديعة للمشاغل اليومية، وإنما يجب عليها أن تعطي لكل شيء قيمته، والقيمة الوحيدة لمشاغل الحياة اليومية، أنه ليست لها أي قيمة.

ثم يتكلم هيدجر بعد ذلك عن المفارقة، وهي حركة نحقق بها ذاتنا في اتجاهنا إلى الآخر - وبذا يصبح وجودنا باستمرار مشروعا لوجود قادم، وتحقيقا لمشروع سابق، ويصبح الحاضر هو نقطة التقاء الماضي والمستقبل.

هذا هو الملحد الأول كما يطلقون عليه، وأما الآخر فهو جان بول سارتر، ونقطة البدء عند سارتر هي الكوجيتو الديكارتي، (أنا أفكر، إذا أنا موجود)، وهي الحقيقة المطلقة للشعور، فكل نظرية تبنى خارج مرحلة إدراك الإنسان لوجوده فهي احتمالية، وكل نظرية تبنى على الاحتمالات ولا تتعلق بحقيقة تهوي في العدم، لأن تعريف المحتمل يتطلب معرفة الحقيقة، إذ أنه لا وجود لحقيقة ما، إلا بوجود حقيقة مطلقة.

والحقيقة التي لا تقبل الجدل هي وجودي، فأنا أوجد وأعرف وأختار، أنا الموجود لذاته، أي الموجود الذي لا ينزع نحو تكوين نفسه بالحرية، بعكس هذا الموجود في ذاته الذي يتصف بالثبات الدائم، الذي لا يطرأ عليه التغيير، بإرادته، وهو المادة.

هذا الكائن الموجود لذاته، حريته هي صميم وجوده، وتثبيت إنسانيته، وهذه الحرية تضع على عاتقه كل المسئولية، إذ أن الإنسان يشعر أن مصيره كله أصبح بين يديه، وهذه المسئولية لا تشمل وجوده الفردي بل هي تشمل وجود الإنسان، إذ أن الإنسان عندما ينشد الحرية، فهو ينشدها لذاتها، ولا يمكن أن تكون حرية إلا بحرية الآخرين وفي هذا فهو يشعر بمسئوليته نحوهم.

ويجب أن يقوم اختياري لنفسي على أساس إشراك الإنسانية جمعاء في هذا الاختيار، بمعنى أن ما أختاره يجب أن يكون صالحا لكل الناس، وبهذا لا تبدو الوجودية ضربا من الفوضوية.

ولكن تلك المسئولية التي يشعر بها الإنسان تقودنا إلى القلق، هذا القلق يؤدي بنا إلى وثبات كبرى نحو العمل، فهو ليس يأسا، إذ أن اليأس هو ترك العمل والاتكال على المكنات، بيد أن هذه المكنات عندما تكون غير متعلقة بإمكانياتي وعملي فيجب عليَّ ألا أهتم بها، إذ أنه لا يوجد أي إله يستطيع تكييف العالم وممكناته بحسب إرادتي، كما أن الاتكال على طبيعة بشرية ثابتة وفق هواي هو ضرب من الوقوع في الخطأ، لأن الوقائع تكون كما يقررها الوجود الإنساني الحر المتغير.

ولكن الحرية يجب أن تناقش في حدود، وهنا يفرق سارتر بين كلمتين وهما الوضعية الإنسانية ويعنى بها الظروف الخارجية والتكوينات الطبيعية التي لا دخل للإنسان فيها كالبيئة والشكل الجسماني.. ثم الماهية الكونية التي يتحكم فيها الإنسان بحريته، فيقف حرا في مواجهة أوضاعه الخارجية التي لم يستعمل في وجودنا حريته، ويخلق من ذاته ما يريد لها أن تكون عليه، وبذا يصبح الإنسان مشروع وجود ومجموع أفعال هي حياته نفسها، فهو بعبارة أخرى سلسلة مشاريع هو مجموعها ومنظمها ومجموع العلاقات التي تكونها، وبذا تصبح الوجودية فلسفة عمل وأمل لأنها تعرف الإنسان بالعمل وتضع بين يديه مصيره ليتصرف به ويسمو على نفسه فيه.

وأما عن الأخلاق، فيقول سارتر، إنها لا يمكن أن تفرض عليَّ من الخارج، بل هو ما ألزم نفسي به، وفي هذا الالتزام تبدو الحرية، وحتى قوانين الدين التي نلجأ إليها لا تفيدنا إذا اتخذنا منها موضعا خارجيا، إذ أننا نتخذ موقفا حرا إزاءها أي أن الإنسان يستطيع تأوليها كما يحلو له، أو كما يراها، وما يراه هو ليس حتما هو ما يراه الآخرون، فالأخلاق إذن في صميم الوجود، ولكن الإنسان دائما يعيش خارج ذاته، إنه يستطيع أن يحقق وجوده بسعيه وراء غايات متعالية، فهو يتجاوز ذاته وهو في صميم هذا التجاوز.

والعالم القائم بحق في الوجود هو عالم الإنسان، والنزعة الإنسانية هي تلك العلاقة المكونة للإنسان، القائمة بين الذاتية والتعالي، والمسألة هي أولا وقبل كل شيء هي مسألة الإنسان الذي يجب أن يجد نفسه.

والآن.. لنلقي نظرة سريعة على الوجودية، وهي نظرة جديدة أثرتها عن نبع ذاتي في مفهوم من منبع المعرفة لي، أحاول فيها أن أوجد شيئا جديدا ربما أحتاج إلى أضعاف هذا البحث المتواضع. ولكنه على كل حال محاولة بدائية صغيرة ضعيفة أدعو الله أن يمدني بطاقة من عنده لأكون فيها به شيئا أكثر سعة من هذا.

إننا نجد ثمة رابطة قوية بين الوجودية والإسلام، إذ أن محمدا كان أعظم فيلسوف (العقل أصل ديني)[١] ، فهو قد مثل الإنسان، وفي نفسه علم الناس كيف يخلقون أنفسهم بأنفسهم، (كن كيف شئت فإنني كيفما تكون أكون)[٢]، حديث قدسي.

فقد تكلم الإسلام عن الإنسان بأعظم كلام، وقد أعطاه الطريق إلى الوجود بلا إله إلا الله، فأصبح الامتزاج بالله في إنسان، هو غاية الموجود الوهمي، ليكون موجودا حقيا، في الوجود الحقي، (وجودك ذنب لا يقاس به ذنب)[٣].

وقد كان محمد، هو أعظم مثال للإنسان، فهو الأعلى المنشود عند جبريل مارسيل، وكارل ياسبرز، وهم أقلية استحقوا أن يكونوا طالبين لمقام الإنسان.

فإذا أراد الكائن البشري أن يخلق نفسه، فإن خلقته لنفسه لا تتم إلا بالله فيه، {والله خلقكم وما تعملون}[٤]، فهو القدرة المطلقة الموجودة في هذا الوجود المقيد، التي تستطيع أن تفعل ما تشاء به، وهي قدرة ليست خارجة عنه، بل إنها في صميم وجوده، هي حريته الملتزمة بنفسها في الآخرين، وهي قبلته التي يريد لها أن تكون موضع اليقين.

فإدراكنا لله في أنفسنا، هو سبيلنا وهو غايتنا وهو فهمنا، {وفي أنفسكم أفلا تبصرون}[٥]، (وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر) [٦]، (ما ظهر الله في شيء مثل ظهوره في الإنسان) [٧].

فماذا نعنى بخلق أنفسنا؟، وماذا نعنى بالحرية في اختيارنا؟، وماذا نعني بالإنسان؟ {وأن ليس للإنسان إلا ما سعى}[٨]، إنه عمله الصالح أو عمله غير الصالح.

أنعني به الكينونة المتناهية الفانية الضئيلة الجامدة؟ هذا الجسد، إنها مادة وليست وجودا فاعلا بذاته، إن الإنسان هو هذه الطاقة التي تحرك هذا الجسد، فإذا تكلمنا عنها، فنحن إنما نتكلم عن سر الحياة، هذا السر الذي يريد أن يأخذ مكانه إلى المتعالي.. إلى الله.. فهو منه وإليه.

ولكن إذا كان سارتر قد كفر بالله، فماذا هو هذا الإله الذي كفر به؟ هذا الإله هو حقا لا محل لوجوده، ما دام منفصلا عن هذا الكون، وهذا الوجود، فإذا كان الله ليس موجودا في الوجود، ففي أي شيء يكون وجوده؟

إن سارتر آمن بقوة الله في الإنسان، آمن بالله (وإن لم يكن قد استخدم هذا اللفظ)، فالله هو الموجود في صميم الوجود الإنساني، ففي حرية هذا الإنسان المطلقة كان الله موجودا، وظاهرا {معكم أينما كنتم}[٩].

فالحرية في الإنسان هي قانون وجوده، ولكن ما طبيعة هذه الحرية؟ فأنا حرة في أن أكون نفسي فقط على ما أرضى لها أن تكون، ولكن ما أرضَى لنفسي أن أكونه قد لا يرضي غيري أن يكونه، فما أرضاه هو ما يناسبني أنا في هذا الوجود الناقص الذي يختلف في درجة نقصه عن الآخر، ولما كانت الحرية الحقة هي نشدان التعالي عن هذا الوجود القائم نحو المتعالي النسبي الذي أرضاه، فإنني سأصل إلى ما أريد لأنزع نحو الآخر المتعالي بنفس القانون، وعلى هذا فأنا والآخر سنصل إلى نقطة واحدة ولكن في أزمنة مختلفة متفاوتة، تتناسب مع درجات تطورنا النوعي في هذا الوجود، إذن فالتطور لا يتم عشوائيا، وإنما يتم وفقا لخطة مرسومة أصنعها لنفسي بحيث تكون إمكانياتي لتحقيقها هي أساس وضعها، ومكاني من الوجود هو بدايتها. {قائم على كل نفس بما كسبت}[١٠].

وإدراكنا لله هو إدراك يتم من كشفنا له في أنفسنا، وامتزاجنا به في التعالي عن وجودنا، وهو ما عناه سارتر بالتجربة الذاتية والوجود خارج ذاتنا، نزوعا للمتعالي وما قاله جبريل مارسيل عن الأمل.

فنحن حقا لا نستطيع معرفة الله إلا بالإنسان، ولكن الإنسان الذي نريد أن نعرف الله به هو هذا الذي ننزع إليه في التعالي، فنحن لا نعرفه إلا عندما نكونه، ويظل الله غيبا علينا في احتجابه بإنسان وإنسان، وشهادة لنا في وصولنا إلى معرفة ماهيتنا منه على ما أردنا أن نكون فكأه بقانون.

إن مرتبة الإنسان هي في رسول الله، فقد كان مثالا للناس بلوغا إلى التعالي في الوجود.

وأما ما دون ذلك، فهو أقل من أن يطلق عليه لفظ إنسان، ولكن المستقبل يفتح له الباب ليكون إنسانا. إن الحياة تفتح ذراعيها لتقول له أن بك بذور الإنسان فأدخلني بها في أعماقك. عش وجرب.. اقلق وفكر. فهذا هو الطريق، ولا بد أن يجيء يوم يسري فيه بك وجود الإنسان. فما كان، هو ما سوف يكون، كما هو كائن.

تم بحمد الله.

بحث: علياء رضاه رافع محمد رافع

مصادر التوثيق والتحقيق

١ عن علي ابن أبي طالب قال: سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن سنته فقال: المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والثقة كنزي، والحزن رفيقي، والعلم سلاحي، والصبر ردائي، والرضا غنيمتي، والعجز فخري، والزهد حرفتي، واليقين قوتي، والصدق شفيعي، والطاعة حبي، والجهاد خلقي، وقرة عيني في الصلاة. ذكره الغزالي في الإحياء، والقاضي عياض في كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ومعظم المتصوفة.

٢ عبارة للسيد رافع يمكن تأمل معناها ومغزاها في السياق.

٣ من أشعار عبد الغني النابلسي من العصر العثماني: رويدك يا من بالتجافي أمتَّني ... وأهملتَ فيما بالوصال وعدتني --- إذا قلت رفقاً إنني ذبتُ زدتني ... وإن قلت ما ذنبي إليك أجبتني ... وجودك ذنبٌ لا يقاس به ذنبُ

٤ سورة الصافات - ٩٦

٥ سورة الذاريات - ٢١

٦ من قصيدة للإمام عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه.

٧ مقولة صوفية.

٨ سورة النجم - ٣٩

٩ سورة لحديد - ٤

١٠ سورة الرعد -٣٣